

خِصَاطِ رِحَالِ وَضَعِ اللِّغَةِ العَرَبِيَّةِ

الدكتور محمد سويسي

وتعرضت الى الموضوع مرارا عدة منذ عشرات السنين ، منذ سنة 1945 في مجلة المباحث وسنة 1960 في محاضرة لقدماء الصادقية عن اللغة العربية والمصطلحات العلمية وسنة 1971 في مجلة الفكر ، وسنة 1973 بـمؤتمر التعريب بالجزائر ، وسنة 1975 بطرابلس في ندوة التعريب .

ونحن نعود دوما الى البداية ، ونرجع الى مفهوم التعريب ، وهذا اللفظ يفيد في اللغة الايضاح والتبيين ، وفي الاصطلاح يطلق على مدلولين مختلفين:

الاول ادخال اللفظ الاعجمي ضمن المعجم العربي فيصقل ويصاغ في قوالب الاوزان العربية ويمكن من القبول لابنيتها والخضوع لمقاييسها وقواعدها ، فيشتق منه على الطريقة التي بها يشتق من العربي الصميم .

والمعنى الثاني — وقد شاع بيننا في السنوات الاخيرة — وهو ايجاد مقابلات عربية للالفاظ الاعجمية حتى تصير العربية الفصحى وحدها هي لغة الكتابة والتدريس والاعلام تستخدم في المدرسة والجامعة ، وتستعمل في الدار والسوق وفي الصحافة والاذاعة .

بين الفينة والاخرى يقوم فينا داع الى ندوة تجمعنا او ملتقى نلتئم فيه كي نتحدث عن مفهوم التعريب وكى نخوض في مشاكل التعريب .

وكائى بهذا الداعى هو في الواقع وخز في الضمير وقد اخذ بواجب مقدس نحو لغة حلت منا في الانثددة وسرت محاسنها في الشرايين والاوردة .

فنحن نجتمع ونساعل عن جوانب القضية ونتعمل بالخطب وبمحسنات الكلام ، وتختم الجلسات وتفترق الجموع ، وكل يظن انه قد قام بالواجب .

وتنطفى انوار الندوات والمؤتمرات وقد تحمست فيها الاجواء احيانا ، فارعدت السماء وابرقت ولكنها سحابة صيف سرعان ما تنقشع بل هي من السحب الخلب لا يرتجى من ورائها حى ولا ربيع .

او قل : نادى منادى الصلاة فام المؤمنون بيوت الله وقضيت الصلاة فاننتشر الكسل في الارض للسمى والجري وراء الفائدة غير متعظ بجليل المعانى التي من أجلها تصد المصلى .

ففى المعنى الاول ينحصر القصد فى اللفظ المفرد، ويتعلق المعنى الثانى بصفة شاملة بحياة الامة ، يرمى الى ان تكون الصلة وشيجة بين الحاضر والماضى كى لا تنقسم العرى بين الشخص وبين آبائه ، بين تفكيره وشموره ووسيلة تعبيره وتفكيرهم وشمورهم ولسانهم .

اى ان النظرة الثانية ترمى الى المحافظة على عريية الازهان قبل السعى الى الانساح فى معجم اللغة، فلا يفيد تعريب الالفاظ اذا ما بقيت العجمة هى المسيطرة على العقلية ، واذا ما انسلخ الفرد تدريجيا عن المجموعة التى اليها ينتمى دون أن يتمكن من الحصول على التبنى من قبل أمم لا عمومة له من بينهم ولا خؤولة .

وما اللغة فى كانه المستويات سوى اداة للاتصال والابلاغ يكون لها من الفاعلية والنجاعة بقدر ما يكون لمستعملها من كفاءة وبراعة ، وفى الواقع ان اللغة براء مما قد يلصق بها من تهمة الفقر والعقم، وانما يتعلق اصل الداء بالاشخاص وبمفاهيمهم .

وانما تحيى اللغات بالاستعمال وبمسايرة التطور الثقافى والحضارى والاجتماعى .

ثم اتنا سننظر الى مشكل التعريب بالمعنى الاول نظرة تقع فى اطار انفسح واهم طالما وجدت البشرية جمعاء نفسها مواجهة اياه ولا سيما فى فترات التطور والتحول ، وهذا الاطار العام هو الذى يتمثل فيها يسمى اليوم بنقل التقنيات من بلد الى آخر . والح تساؤلات فى هذا الشأن يتمثل فى : هل على الدول النامية ان تتلقى من الامم المتصنعة خبراتها واساليبها وطرقها العملية بحذافيرها وان تطبق نماذجها الاتمائية كما هى ، مقتصرة على التقليد البسيط ؟ أم هل يجب على كل بلد ان يقتبس من الغير مجرد الاقتباس محافظا على ملامحة ما يقتبسه لوضعه الخاص وبيئته الذاتية ودرجته فى النمو ؟

والشأن فى اللغة كالشأن فى الاقتصاد . وليس الامر خاصا بالعربية بل ان سائر اللغات قد تعرضت

اثناء تاريخها لعين المشكل . ونحن سنقتصر على ذكر الموقف الذى وقفه فى الموضوع بعض الباحثين بفرنسا غب الوثبة التى وثبتها اوربا نحو الحضارة العلمية وعند اتبعات المجتمع الغربى المتصنع فى نهاية القرن السابع عشر للميلاد وفى بداية القرن الثامن عشر .

فهذا فيفلون يقول فى رسالته الخاصة بمشاغل المجمع اللغوى الفرنسى : « ان اللاتينيين قد اثروا لفتهم بما كانت فى حاجة اليه من المصطلحات الاعجمية فكانت تعوزهم مثلا مفردات مخصصة فى الفلسفة اذ لم تظهر بروما الا فى فترة متأخرة من الزمن ، فاستعاروا من اليونانية مصطلحاتها ليتمكنوا من ترويض افكارهم على مادة العلوم .

وهذا شيشرون - وهو من حيث التزمته ومن حيث الحرص على سلامة اللغة - قد سمح لنفسه باستخدام المفردات اليونانية التى كان فى حاجة اليها ، وكان فى البداية يستعمل اللفظ اليونانى على أنه اعجمى يستسمح استعماله بتحشم ، ثم انقلب عنده الاسترخاى حقا وتهلكا للمصطلح وحوزا له ، واعتبر ما جالته يده بالحوز والتصرف حقا من حقوقه الخاصة .

هذا وقد بلغنى أن امة الانجليز لا تتعفف من استخدام كل ما من شأنه أن يساعدها على التعبير مهما كان منشأه ومهما كانت مصطلحاته ، فتتنقض على هذه المصطلحات انى وجدتها تستحوذ عليها ، وهم يعتبرون ان ليس لهذه الأصوات فى حد ذاتها من قيمة بل هى تنسب على السواء للامة المستعمرة لها وللأمة المعبرة اياها ، فهل هناك من اهمية لكون اللفظ قد ولد ببلد من البلدان أو ببلد آخر منه نقل الى الاول ؟ وانه لمن قبيل الغيرة الصبانية ان يشعر الانسان بفرق بين الامرين اذ ليس الشأن سوى اعتبار لكيفية تحريك الشفاه وقرع الهواء . . . (*)

واذا ما اعتمد عيشنا بأكمله على استعارات صارت من رصيدنا الخاص ، فبم نبرز ما نبدى من استحياى من نقل مسمياتها بكل حرية ؟

(*) هذا الراى يفقد شخصية الامة وكل الملابس المعنوية التى تتصل بالموضوع - «اللسان العربى» .

بأله واسود وجهه وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للاخبار الكروية والاسمار الليلية .

هذه آراء بعض العلماء الاعلام في العصور الخالية فكأنى بالمعارض يتوجه الى زاعمها انى انما ادعو الى التعلق بالماضى وبأساليبه او انى ربما احث على التقليد واقتناء الآثار ولكنى اذ اذكر ما اذكر من هذه الآراء فما ذلك الا للقول بانها قد ساعدت تحديها على ايجاد عقول نبهة وادمغة ثرية منتجة فلا اعنى بقولى هذا انه ينبغي تصنيعها بل الشأن ان نتخذ عملها وثائق تاريخية نرجع اليها كأدأصالحة فحسب وللغة وجودية تستلزم تجسيما في وجود انساني ووجود اجتماعي والمجتمع قد تحول والعلم قد تطور وليس من المعقول ان نسير الى الوراء وان نسلك مسالك القدامى نفسها .

وقد يرى بعضهم ان في عملنا هذا ضياعا للوقت وشغلا للنفس بما يجعل الانسان يعرض عن وجهة التقدم وعن تيار الرقى المتدفق مما الفائدة في السعى الى التعريب مهما كان المقصود منه فالعصر في زعمهم هو عصر توحيد ، يروع البشرية فيه ازالة الفوارق والغاء القوميات والعصبيات ، وفي العزم بعث نموذج من البشرية تماثل العناصر والصفات متوحد النزعات متشابه الآراء والمذاهب الفكرية والثقافية والاقتصادية يستعمل عين الطرق التربوية والاجهزة الاعلامية ويستخدم نفس الوسائل للتنقل ، له عين الذوق في الطعام والمشرب والملبس والسكن ..

ونحن نرى ايضا ان هذا التقارب والتشابه من شأنه مبدئيا ان يحسم الخلافات وان يفض الخصومات ولكننا نلاحظ — عند التطبيق وفي الواقع — ان هذا الفكر انما يتم لصالح القوى المهيمن على من حوله من الناس وليت البشرية سارت سريرة عدل ، على سراط سوى لا تزيف ذات اليمين ولا ذات الشمال ، لا شرقية ولا غربية راسخة الاقدام اصلها في الارض وفرعها في السماء ..

الا تكون الوحدة المزعومة على حسابنا وعلى حساب حضارة يعتر بها الانسان الحق ، انقذته من ظلمات الجهالة الحالكة ، وحفظت كرامة بنى البشر وأورثتهم تراثا من أروع التراثات جمالا وأخصبها مضمونا وأدقها علما .

ومقدمة كتاب «الجامع لمفردات الادوية والاغذية» للنباتى ضياء الدين بن البيطار المالقى جليلة القيمة غزيرة المعانى في الموضوع الذى يهنا ، فيجعل هذا العالم غرضه السادس من كتابه حسب قوله بنصه :

«في اسماء الادوية بسائر اللغات المتباينة في السمات مع انى لم اذكر فيه دواء الا وفيه منفعة مذكورة او تجربة مشهورة (وذكرت) كثيرا منها بما يعرف به في الاماكن التى تنبت فيها الادوية المسطورة كالالفاظ البربرية واللاتينية وهى اعجمية الاندلس ، اذ كانت مشهورة عندنا ، وجارية في معظم كتبنا وقيدت ما يجب تقييده منها بالضبط وبالشكل والنقط تقييدا يؤمن معه من التصحيف ويسلم قارئه من التبديل والتحريف ، واذا كان اكثر الوهم والغلط الداخلى على الناظرين في الصحف انما هو تصحيفهم لما يقرؤونه او سهو الوراقين فيما يكتبونه» .

ويلخص البيرونى رايه في تعريف المصطلحات في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة » فيقول : « وانا اذكر من الاسماء والمواضع في لغتهم (يعنى لغة الهند) ما لا بد من ذكره مرة واحدة يوجبها التعريف ، ثم ان كان مشتقا يمكن تحويله في العربية الى معناه لم اهل عنه الى غيره الا ان يكون بالهندية اخف في الاستعمال فنستعمله بعد غاية التوثق منه من الكتبة او كان مقتضبا شديد الاشتهار فبعد الاشارة الى معناه وان كان له اسم عندنا مشهور فقد سهل الامر فيه » .

فالى لسان العرب اذن نقلت العلوم من اقطار العالم ، ويعود البيرونى الى الموضوع في كتاب الصيدلة ويصرح بحبه للعربية فيقول : «وكانت كل امة تستحلى لغتها التى الفتها واعتادتها واستعملتها فى ما ربهها مع انها واشكلها ، واتيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استفراب البعير على الميزاب والزرانفة فى الكراب ثم منتقلة الى العربية والفارسية فانا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف والهجو بالعربية احب الى من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسى كيف ذهب رونقه وكسف

والعلوم الى العربية هو مثل كتاب ديوسقوريدس يدرس في الادوية المفردة ترجم هذا الكتاب بمدينة السلام في الدولة العباسية في ايام جعفر المتوكل وكان المترجم له اصطفين بن بسيل وتصفح ذلك حنين بن اسحاق فصصح ترجمة واجازها فما علم اصطفين من تلك الاسماء اليونانية في وقته له اسما في اللسان العربي فسرته بالعربية وما لم يعلم له في اللسان العربي اسما تركه في الكتاب على اسمه اليوناني اتكالا منه أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي اذ التسمية لا تكون الا بالتواطؤ بين اهل كل بلد على اعيان الادوية بما راوا؟ ويقول ابن جنجل: وورد هذا الكتاب الى الاندلس وهو على ترجمة اصطفين منه ما عرف له اسما بالعربية ومنه ما لم يعرف له اسما فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق والاندلس الى ايام الناصر عبد الرحمن بن محمد فكتابه ارمنيوس ملك القسطنطينية احسب في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وهاداه بهاديا لها قدر عظيم فكان من جملة هديته كتاب ديوسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقي .. وكتب ارمنيوس في كتابه الى الناصر أن كتاب ديوسقوريدس لا تجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف اشخاص تلك الادوية ..

ثم بعث ارمنيوس الى الناصر براهب كان يسمى نقولا (يتكلم الاغريقي) واللاتيني وهو (اعجمية الاندلس) وكان يومئذ بقرطبة من الاطباء قوم لهم بحث وتفقيش وحرص على استخراج ما بل من أسماء عقاير كتاب ديوسقوريدس الى العربية .. فصح يبحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء هذه العقاير تصحيح الوقوف على اشخاصها بمدينة قرطبة خاصة ما ازال الشك عن القلوب واوجب المعرفة بالوقوف على اشخاصها وتصحيح النطق باسمائها بلا تصحيف وتقبل الدخيل هكذا ضمن معجم اللغة هو ما اشرنا اليه في المفهوم الاول للفظ التعريب أي نقل المفردات الاعجمية بلحمها ودمها وقد اجاز مجمع القاهرة الالتجاء الى هذه الطريقة اذا دعت الى ذلك الحاجة بأن لا يوجد لفظ متداول في اللغة او مهجور يؤدي بدقة المعنى المصطلح عليه . وكما لاحظنا انه قد يكون من المفيد في المرحلة الاولى من التعريب أن نلتجئ أحيانا الى هذه الطريقة ، وقد يفرضها علينا الاسراع لمواكبة سير الامم في الميدان العلمي على أنه لا ينبغي أن نعتمد

وعند هذا يفاجئنا المعارض بلون جديد من التحليل والتفنن والتحويل فيسأيرنا في قولنا انما تكون اللغة بالاستعمال ويسأندنا اذا ما قلنا انه من الواجب أن يتعرب التدريس وعندها يتبرم مرددا مقالة انيس فريحة : « ان الفصحى ليست لغة الكلام فلا يرجى منها أن تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها وقسوتها ولينها ، كما تستطيعه العامية والدليل ظاهر فانك لا تستطيع أن تقول بالفصحى ما تقوله في العامية واذا نقلته الى الفصحى اتى جانبا قاسيا خلوا من العنصر الانساني اللصيق باللغة » فيجيبه الاستاذ بلاشير : « اني لاصرح ان لغة الاعتزاز هي العربية الفصحى .. ولو كنت عربيا لكنت بالطبع فخورا بهذه اللغة ان اللغة العربية هذه تمكن العربي من ابراز شخصيته امام لغات الامم الكبرى وتشعره أنه يمتلك لغة حضارية ممتازة .. » على أن مشكل الفصحى والعامية ليس خاصا بالعربية فهذا الاستاذ مرتيني الاخصائي في ميدان اللسانية يصرح أن انتشار الفرنسية الفصحى بين عامة الفرنسيين حديث العهد ويضيف انه لا وجود للغة عامية فرنسية بل اننا كلما ابتعدنا عن باريس في مختلف الاتجاهات ننتقل تدريجيا من لهجة الى اخرى ومع ذلك كل الفرنسيين يخاطبون معلمهم أو تساوستهم بعين اللغة .

وبهذا الاعتبار هل توجد بتونس لغة عامية واحدة بها يتخاطب اهل الوطن القبلي أو اهل المهدية أو اهل قفصة؟ وما هي العامية التي قد يفكر بعضهم في تعميمها لتموض الفصحى؟ أهى لغة الفلاح أم الجزار أم الملاح: لغة القرى أم لغة البادية؟

ونحن مع ذلك لا ننكر أن لبعض الالفاظ العامية طرافة وانه في الامكان أن تستغل العامية لاثراء الفصحى وتلقيحها ونحن فكرنا آنفا ما صرح به ابن البيطار من استعماله البربرية واللاتينية لتسمية بعض الاعشاب بل اننا لا نتخرج في بداية الامر من استعمال بعض المصطلحات الدخيلة ضمن مقالنا أو في دروسنا وهذا ابن سينا في كتبه عامة وفي رسالته اللواحية خاصة يستخدم مصطلحات مستعارة من اليونانية والفارسية والهندية بنسبة لا تقل عن الثلث عن مجموع المصطلحات المستعملة في رسالته .

ولعل احسن مثال يصور لنا هذا التدرج في نقل

للاحاطة بالالفاظ الاصطلاحية ويقول آخر لقد تجاوز الاستاذ سليم عمار عقبة الاصطلاحات اذ كان ياتى بالمقابل الفرنسى بجوار المصطلح العربى حتى يتمكن من لم يتعود على الاستماع الى العربية من الاستفادة ومن ادراك المفاهيم العلمية . ويقتراح بعض الطلبة ان يتمرن المتريصون على تسجيل ملاحظاتهم باللسان العربى وان يقوم المساعدون من بين ما يقومون به من دروس بدرس فى العربية ويقول طالب آخر ان ما استفادوه من هذا الدرس بالعربية هو ما كانوا يستفيدون فى دروس الفرنسية ، بل انه فى الامكان ان يقال انهم لو تعودوا من قبل على الاستماع الى دروس عربية لكان تصورهم للمفاهيم اسرع وهضمهم لها اسهل وايسر .

ثم يعقب معقب منهم ان معظم المرضى من ذوى الثقافة المتوسطة ويكون من الانجح ان يخاطبهم الاطباء بال لغة التى يفهمون اى العربية وفى ذلك ما يعين على النلاج يتفهم المريض نوع مرضه وما يقتضيه من دواء ومن تدبير وبذلك يسهل على الطبيب نفسه قيامه بمامورياته .

بهذه الانطباعات المشجعة اختم تولى مؤملا فى ندوة مقبلة ان الاحظ ان الايمان الذى تغلب فى النهاية وان التعريب الحق الصادق قد نخل حيز التنفيذ وان نتائج الملموسة قد ساعدت على ازالة بقية التخوفات لدى من كان يوجس خفية من مبادرة كان يرى فيها مجازفة وتهورا .

اساسا ونهايا على هذه الطريقة بل يجب ان تصطبغ بالصبغة المرطوية خاصة ، ونحن فى موقف المستهلك لا المنتج ، وقد نكون الين جانباً غير متشددين فى هذه النقطة بالذات لو كنا لغرباً ائدادا نأخذ منهم بقدر ما نعطيهم ناتى بالامر الطريف المتأثر بشخصيتنا ووضعنا الخاص فنرد على ما اخذنا عوضاً ونجرى بيننا وبين الغير تياراً مستمرا من التبادل الحق تساوت فيه جهتنا لا فضل لجانب منها على الآخر بل ما تكافأت اعمالها ولكليهما على الآخر فضل .

ونحن نعود فى النهاية الى ملاحظتنا وهى ان اللغة انما هى اداة يكون لها من الصلاحية والنجاعة بقدر ما يكون لمستعملها من الكفاءة والبراعة ، وحياسة اللغة بالاستعمال واللغة تتطور بتطور الحياة والافان ما وقف وتحجر اضمحل وصار الى الفناء .

هذا وما يبعث على الامل — لا على التفاؤل — ما نقلته لنا الصحف فى الرابع والعشرين من شهر فيفري المنصرم فكان شبه المفاجأة الطيبة وهو ما اقدم عليه بعزم وحزم الاستاذ الدكتور سليم عمار من كلية الطب بتونس فالتقى بها اول درس فى الطب باللسان العربى .

ولعل ما يبعث على التفاؤل ما علق به بعض الطلبة الذين حضروا الدرس فقال قائلهم ان هذا الدرس كان حقا منعمشا ولو ان البعض من الطلبة وجد صعوبة